محيط الدائرة

قصة بقلم جان الكسان

ـ انت الفأر الابيض .. وانت صاحب التجربة ..

ظلت هذه الكلمات تشغل ذهنه عدة شهور ، فتتسلق جبهته بضنك وبرودة ، ثم تتساقط امام عينيه كالعقارب ، تتحدى محاكماته العقلانية واعصابه التي باتت مستنفرة باستمرار ..

قال له صديقه القادم حديثا من لندن حاملا شيئا من ثقافة اهلها وكثيرا من ضبابها : في المخابر ، يجري العلماء التجارب العضوية على الفئران البيض ، وانت الآن فأر ابيض ، ولكنك في الوقت ذاته العالم الذي يقوم بالتجربة ، فعليك ان تهتدي الى نفسك بنفسك ...

ـ معنى هذا انك تعارض فكرة الذهاب الى طبيب نفسي ؟

ـ أجل ، وأصر على ذلك .. سيعقد هذا الطبيب المشكلة ...

ـ ولكن مشكلتي انني بلا مشكلة حقيقية .. هلا فهمتني أكثر ؟

ـ انني افهمك جيدا ..

ـ لا اصدق هذا ، فانا برأيك لست سوى فأر أبيض قد يصلح للتجربة او قد لا يصلح اذهب الى الشيطان انت ، لندن ، والعلماء ...

***

مد سبابته الى الامام فكانت ترتجف .. انفتل الى المرآة ونظر الى وجهه ، لم يكن في صورته المعكوسة على صفحتها اية علامة من علامات الحزن او الفرح .. رشق المرآة ببعض الماء ، وعاد فتمدد على السرير يتأمل صورا لنسوة عاريات بأوضاع مغرية ...

قبل ذلك ، كانت صورة « اليزيدي » تشغل ذهنه كثيرا ، فمنذ ان حدثه صديقه الآخر القادم من الشمال عن اليزيديين وهو يسائل نفسه عما اذا كان واحدا منهم تاه مع الايام عن موطن القبيلة ؟ ..

قال له الصديق : « في الجبهة الشرقية من منطقتنا ، حيث تمتد جبال سنجار في أرض العراق متاخمة للحدود ، تعيش قبائل اسمها اليزيدية ، وينعت افرادها بأنهم عبدة الشيطان لانهم لا يلعنونه بل يعتبرونه روحا قوية يجب الا تقاوم » .. ولكن النقطة المهمة في حديث الصديق ، والتي شغلت باله ، كانت توكيد هذا الصديق بان اليزيدي اذا كان واقفا في مكان ما ، وجاء احدهم ورسم حول مكان وقوفه دائرة، اما على التراب او بقطعة فحم او حوار ، فانه يظل حبيس هذه الدائرة حتى يأتي احدهم ويمحو جزءا من محيط الدائرة ليخرج منها ، والا فانه يبقى ضمن محيطها حتى يوم القيامة ..

***

كانت الدوائر التي وزع عليها الشاب انسان العالم ، اربع دوائر متتالية بصورة عمودية : فالدنيا منها أسماها الدائرة الفردية وطوق بخط محيطها فئة من البشر لا يدب افرادها الا في المسالك الحيوانية البعيدة ، متنكبين ميادين العواطف والعطاءات الانسانية كلها .. اما التي تليها فدائرة التواطؤ ، وهذه حشر فيها الذين حوله جميعهم ، والديه واصدقاءه وعاثرات الليل وساقي المقهى وبقية المخلوقات البشرية التي تنتظمها خيوط الحياة الاجتماعية . اما الدائرة الثالثة فيتخطاها رأسا الى الرابعة ليقف امام محيطها عاجزا عن حصر اي انسان فيه ، فهذه دائرة السوبرمان ، وهذا الانموذج مات في دنياه في اذهان القطيع ..

ويعود الى الثالثة ، الى دائرته ، هو ، ليجد نفسه وحيدا فيها ، ويروح مع الايام يحاول ان يجد نعتا لها ، واخيرا يهتدي الى تعريفها بدائرة الوعي المشلول . اتعبه الوقوف ضمن محيطها .. تذكر حديث صديقه عن اليزيديين ، وبدأ يقنع نفسه بأنه واحد منهم تاه عن موطن القبيلة وظل رهين دائرته ينتظر قدرا يمحو امامه شيئا من محيط الدائرة يكون بابا للخلاص ...

هنا .. قفز الى ساح شعوره سؤال جديد : وماذا بعد الخروج من الدائرة الثالثة ؟ ليس امامك الا ان تقفز الى الرابعة وتكون الانسان السوبرمان ، او تعود الى الدائرة الثانية وتصبح واحدا من افراد القطيع المتواطيء ...

***

ـ أنت الفأر .. وانت صاحب التجربة ..

ماذا يريد هذا الصديق ان يقول ؟ قبل ان يتكلف الحكمة ويستعرض امامي رصيده من الثقافة عليه ان يخرج من الدائرة الثانية ، ان يكون ـ على الاقل ـ واحدا متميزا في القطيع ...

سأهزأ من الثقافة بطريقة جديدة واعرض حالتي على طبيب نفسي، اليست تجربة مثيرة ؟ ..

***

كانت ساق سكرتيرة الطبيب اول ما لفت نظره وهو يدخل العيادة، ذلك لانها كانت بارزة بوضع مغر من خلف الطاولة التي تجلس اليها ، اما الساق الثانية فقد اختفت خلف المكتب ...

قال لها : جلستك مغرية .. ورائعة ..

قالت : ماذا تريد ؟

قال : كنت ارغب في مقابلة الطبيب ، اما الان فلا بأس ان تكوني انت الهدف ..

قالت بهدوء : باستطاعتي ان احدد لك موعد المقابلة مع الطبيب في الساعة السادسة من مساء الغد ..

ـ هل لي ان اسألك لماذا لم تغضبي من طريقتي في الحديث معك وانا اراك للمرة الاولى ؟

ـ من واجبي ان اكون طويلة البال مع المرضى الذين يقصدون العيادة ...

***

في اليوم التالي جاء في السادسة والنصف ، فمنعته سكرتيرة الطبيب من الدخول ، قالت ان وقته المحدد قد فات ، فصاح في وجهها : وهل نحن في مدرسة داخلية ؟

وقبل ان تجيب ، ظهر الطبيب امام باب غرفته مستفسرا عن سبب الصياح ، فقالت السكرتيرة : انه مريض الساعة السادسة ..

فصاح الشاب : لست مريضا .. لم اتقدم لاي فحص حتى الآن .

قال الطبيب بهدوء وهو يبتسم : باستطاعتك ان تدخل لتواجه اول الفحوص ...

وعندما دخل الغرفة اشار الطبيب الى اريكة وقال له : تستطيع ان تستلقي .

قال : لن افعل هذا ، الا يمكن للطبيب النفسي ان يتحدث الى زائره دون ان يجعله في وضع المستلقي ..

قال الطبيب : كما تريد .. اجلس على هذا المقعد .

فرد الشاب باصرار : بل سأظل واقفا ، هل يزعجك هذا ؟

قال الطبيب وهو يجلس خلف مكتبه : بالعكس .. تستطيع ان تكون في الوضع الذي تريد ، المهم ان ترد على اسئلتي ...

قال مستنكراً : ولماذا لا ترد انت على اسئلتي ؟

رد الطبيب : ومن قال لك انني ارفض الرد ؟ المهم ان يحدث احدنا الى الآخر ، فقد اكون انا بحاجة الى نصيحة منك ، انما ارجو ان تفيدني عن اسمك حتى اعين لك خانة بين اصدقاء عيادتي ..

ـ اسمي زياد ..

ـ هذا الاسم الاول .. فما هو اسمك الكامل ؟

ـ زياد ليس اسمي ..

ـ لماذا لا تقول لي اسمك الحقيقي ؟

ـ لنفترض ان اسمي زياد ، او ممدوح ، او بطرس ، هل يبدل هذا من الموضوع شيئا ..

ـ انها شكليات .. على كل حال ارجو ان اعرف اسمك ، وثق ان دفتري بئر عميقة .

ـ اسمي ذوقان سفل التلة ..

ـ هل تمزح ؟ ..

ـ بل هذا هو اسمي الحقيقي ، هل تريد ان ترى هويتي الشخصية ؟

ـ لا حاجة لذلك .. لقد صدقتك ..

ـ قبل ان تكتب الاسم تذكر انه لا يشكل بالنسبة الي اية عقدة .

ـ اعدك بانني ساتذكر ذلك ، والان ، هل انت مصمم على القاء الاسئلة ؟

ـ طبعا ..

ـ تفضل .. وتذكر ان مريضا آخر ينتظر الدور بعدك ..

ـ انا لم احضر اليك لاحلق ذقني .. سادفع لك ما تشاء من المال بشرط الا تقيدني بالوقت ..

ـ كما تريد .. والآن .. سل ما تشاء .

ـ ما هو اسم والدتك ؟

ـ رمزية ..

ـ منذ متى تخرجت من الكلية ؟

ـ منذ ثلاثة اعوام ..

ـ هل تتبول في فراشك ؟

ـ كلا ..

ـ لماذا بدا الغضب يظهر على وجهك ؟

ـ لانك ... اوه .. عفوا .. انني لست غاضبا ، ولكنك تتخيل ذلك ..

ـ هل اتابع اسئلتي ؟

ـ طبعا .. تفضل ..

ـ هل حاولت ان تقيم علاقات جنسية مع سكرتيرتك ؟

ـ لا اسمح لك بهذا السؤال ؟

ـ ولكنك سمحت لي بان القي ما اشاء من الاسئلة ..

ـ انك تتجاوز حدودك ..

ـ هل يغفر لي هذا اعترافي بانني مريض .

ـ الذي يعرف انه مريض ، عليه ان يساعد الطبيب في تشخيص الداء ..

ـ اذن .. ادع السكرتيرة ..

هنا .. غضب الطبيب وصاح بالشاب الواقف امامه : ولكن لماذا تحشر السكرتيرة في الموضوع ؟ هل تعرفها قبل الآن ؟

ـ لم ارها قبل الآن ابدا ..

ـ اذن لماذا تريدني ان استدعيها ؟

ـ لتكون وسيلة ايضاح ..

ـ ماذا تقصد ؟

ـ سأجعلها تجلس على هذا الكرسي ، وسأرجوها ان تضع ساقا فوق اخرى ، ثم اروح اروي لك مأساتي صادقا ، وقد ابكي ..

ـ تصور انها موجودة ، وارو لي مأساتك .. وابك ان شئت ..

ـ مأساتي يا سيدي الطبيب هي هذه المسافة القليلة التي ينحسر عنها ثوب المرأة ، اية امرأة ، عن ركبتيها عندما تجلس .. ان هذا البياض ينقر عيني .. يتحداني يجعلني ارتكب حماقات سخيفة ، وحادة ، ومختلفة ، فاحاول ان اجد العزاء لدى العاثرات الاجيرات ، ويزداد اتساع المسافة البيضاء احيانا ، ولكني أحس بالقيء .. اريد علاقة نظيفة ، غير مأجورة ، ولا رخيصة ، اريد ان اتخلص من عقدة الركبة هذه ...

قال الطبيب بهدوء : انت بحاجة الى الحب ..

انفجر الشاب يضحك .. يقهقه .. كان يعلم ان الطبيب سيصل الى هذه النتيجة ، كم هو غبي هذا الرجل الذي يتسربل بالبياض ويضع على عينيه نظارة طبية ويكدس في غرفته الكتب الاجنبية ..

وقام الطبيب عن كرسيه كأنه يوحي للشاب بانتهاء المقابلة ، فمد هذا يده الى جيب بنطلونه واخرج ورقة بخمس وعشرين ليرة ، القاها على مكتب الطبيب وقال : انت ايضا في الدائرة الثانية . سأله الطبيب وهو يتقدم نحوه غاضبا : ماذا تقول ؟

فرد الشاب : اقول انك من القطيع المتواطيء ..

وهنا صاح الطبيب : اخرج من العيادة .

***

في اليوم التالي دخل الشاب عيادة الطبيب قبل موعد حضوره ، وفوجيء بأن السكرتيرة ردت عليه التحية بابتسامة عذبة ..

قال لها : سأطلب منك معروفا .

قالت : اطلب ...

قال : اريد ان اطلع على الملاحظة التي كتبها الطبيب بجانب اسمي في سجله .

قالت : آسفة .. هذا من اسرار المهنة المقدسة ، ومن واجبي ان اظل امينة عليه ..

قال : ولكني اريد الاطلاع على الملاحظة من قبيل الفضول فقط ..

قالت : آسفة .. لا استطيع ان اطلعك على شيء .. ثم انني لا اطلع عادة على السجل الخاص .

قال : اذن .. سأطلب جميلا آخر ليس من اسرار المهنة .. اخمشي ظاهر كفي بظفرك هذا الطويل .

ومد اليها يده مقلوبة ، فضحكت ، وخمشت جلده بظفرها ..

***

في المساء .. كان الشاب وسكرتيرة الطبيب يجلسان في حنوة حالة باحد مرابع المدينة الليلية ..

وفي نهاية السهرة ، تبين الشاب ان دائرته الثالثة ، كانت ، بلا محيط ...

دمشق

جان الكسان

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩